بعض العادات على سلوكنا

للأستاذ محمد زكى عبد القادر

هناك أشياء صغيرة فى سلوكنا : نتغاضى عنها تحت ستار التسامح تارة ، وتحت ستار الخوف أو العجز أو عدم الرغبة فى تضييع الوقت تارة أخرى ، ولكن هذه الأشياء على الرغم من صغرها تصبح لخلق العام للأمة بطابع خاص . و لخلق العام يؤثر على السلوك الخاص للأفراد ، والسلوك الخاص للموظفين ، ومن ثم على السلوك العام فى أداة الحكم والتنفيذ .

وهذا التسلسل فى التأثير واضح تماما ، ويمكن إبداء عشرات الأمثلة عليه . ولكنى ندعها الان فنتكلم عن هذه الأشياء الصغيرة .

الزوار الثقلاء :

تكون منهمكا فى عملك : فى مكتبك ، اذا كنت محاميا ، أو فى عيادتك اذا كنت طبيبا ، أو فى متجرك اذا كنت تاجرا ، أو فى ديوانك اذا كنت موظفا ، فيهبط عليك زائر ، قد يكون صديقا عزيزا أو لايكون . وهنا تقع أنت بين نارين . ان قصرت فى تحيته والتحدث اليه لم تسلم من لسانه ؛ وان أديت له ما يحسبه واجبا من هذه الناحية ، كان لابد أن تهمل عملك أو تعطله أو تؤديه أداء سيئا .

والأكثرون منا يؤثرون أن يحاملوا هذا الزائر على حساب العمل ، يؤثرون أن ينصرفوا عن عملهم العاجل الى التحدث عن الطقس وغلاء الحاجيات والعلاوات والدرجات والعارات والسياسة ، والحرب ، والسهرات وربما يضطرون الى الخوض فى أعراض الناس . يؤثر الكثيرون منا أن يفعلوا ذلك ، لكى يرضوا هذا الزائر الذى قد يكون فارغ القلب واليد من الهم والعمل ، ولذلك قد تطول زيارته وقد تثقل جلسته ، قد يتناول بين وقت وآخر جهاز التيفون الموضوع على مكتبك ليحدث أصدقاءه وربما صديقته ، حديثا فارغا مملا سخيفا ، لا يرعى شعورك ولا يحترم وقتك ولا عملك .

فأنت بسلوك المجاملة الذى رأيت أن تتبعه مع مثل هذا الزائر تكون قد شجعته على أن يكرر عمله معك ومع غيرك وتكون قد ساعدت على أن يصبح مثل هذا السلوك من تقاليد الجماعة المصرية ولو أنك تصرفت عنه والقيت همك وفكرك الى عملك ؟ وظهرت أمامه بمظهر

الرجل الذى يؤثر عمله على السفسطة ، لأدرك من نفسه أنه أخطأ ولأدرك أنك تكره منه هذه الزيارة ، ومن ثم فلا يقدم عليها مرة أخرى ولو أن غيرك سلك مثل هذا السلوك إزاء كل زائر من هذا النوع ، لانتفت هذه الزيارات الثقيلة التى تأكل الوقت والجهد وتضيع بعض الثمرات الحسنة للعمل المنظم المستمر الذى يؤديه صاحبه فى أوانه .

نعم ان هؤلاء الزوار أو بعضهم سيبسطون ألسنتهم فى مزوريهم . ولكن ماذا يهم هذا النوع من النقد والتجريح ؟ انا فى حاجة الى كثير من الشجاعة الأدبية حتى نستطيع أن نتخلص من بعض هذه المضايقات ، ومن ثم تتخلص البيئة المصرية من بعض النقائص التى تؤخذ عليها .

وأنت حينما تزور المصالح الحكومية ، تجد فى بعض المكاتب موظفيها يتركون عملهم لينصرفوا الى زوارهم يحتسون و إياهم القهوة ويدخنون السجاير . . . على حساب من يضيع هذا الوقت؟ . . على حساب دافع الضرائب المسكين الذى يشقى فى الشارع والحقل والمصنع ، إن هؤلاء الطفيليين من الزوار يأخذون وقت الموظفين الذى يجب أن ينفق فى أداء الأعمال الموكول أمرها اليهم و يأخذونه لابل يسلبونه . فان وقت الدولة هو مال ، يدفع قيمته دافع الضرائب فيأتى هؤلاء الطفيليون ويسرقونه كما تسرق الأمتعة .

واذا كان الموظف المزور راضيا عن هؤلاء الزوار منصرفا اليهم مقبلا عليهم فانه شريك معهم فى هذه السرقة . واذا كان خجلا منهم غير قادر على أن ينبههم الى خطئهم فان شعوره بالواجب واعتزازه بعمله وغيرته عليه تكون من الضعف بحيث يوشك أن يعد رجلا غير أمين .

الذين يسبقونك فى الدور :

ولنضرب مثلا آخر : فى شبابيك السكة الحديدية ، وفى شبابيك بعض دور السينما ينظم قطع التذاكر بالدور . تكون فى دورك فيأتى طفيلى ويدفعك عنه ويصر بحركة سمجة على أن يسبقك . هنا قد تتسامح أنت وتنظر اليه نظرة شزراء وتسكت ، وتدعه يأخذ دوره قبلك ، إنك بذلك تخطئ ، صحيح أن تأخيرك دقيقة ، أو دقيقتين ، قد لا ينطوى على ضرر كبير لك . ولكن تسامحك فى أن يعتدى معتد على النظام وعلى حق لك هو الذى ينطوى على أكبر الضرر . ومزاحمة هذا الطفيلى لك فى شباك السكة الحديدية أو شباك دار السينما هو مثل لما يمكن أن يعمد اليه فى مسائل أكثر خطورة وأعظم أهمية . وهذه الحركة التى تعدها تافهة وسخيفة منه تدل على اتجاه سيئ فى نفسه يطبعه فى كل التصرفات ، ومن ثم يصبح مواطنا لايحترم حق غيره ولا يحترم النظام العام ، واذا شاع مثل هذا السلوك فى أمة كان بناؤها الاجتماعى وشيك الانهيار ، وكان خلقها العام موضوعا للنقد والتجريح .

ولو أنك عدت مثل هذا الطفيلى الى مكانه وزجرته على سوء تصرفه وتمسكت بحقك وبحق النظام ، وساعدك على ذلك غيرك ممن هم بعدك فى الدور أوقبلك فيه وتعاونتم على زجر هذا المعتدى لما جرأ مرة أخرى على أن يكرر هذا السلوك معك أومع غيرك ، ولكن تسامحك وتسامح غيرك يوحى اليه أنه فاز دونكم بدور متقدم وأنه بهذا العمل قد تخطاكم وأخذ تذكرته وانصرف قبلكم ، بهذا يكون مستعدًا بل ومتحفزا فى مثل هذه المناسبات أن يكرر هذه المزاحمة وهذا التعدى .

الذين يزاحمونك فى القطار والترام :

ولنضرب مثلا ثالثا : تكون فى القطار أو فى الترام أوفى الأمنيبوس والعربة كامله ليس فيها مكان لراكب جديد ، فاذا براكب ثقيل يقدم ، ويسألك ، ويسأل جارك أن تسمحا له بمكان بينكما . وتشعران أنتما بشىء من الخجل ، فتوسعان له المكان الذى يطلبه . وتفعلان ذلك فى اشمئزاز ولكنكما تسكتان ، أنتما بذلك تخطئان ، ولو رفضتما أن تسمحا له بما يطلب لأعطيتماه درسا لن ينساه . هذا الدرس هو أن يحترم راحة غيره ، ويحترم النظام الموجود فلا يضايق الناس بهذه السماجة . فان هذا المكان قد خصص لاثنين أو ثلاثة أو لأربعة ، فلا يصح أن يتجاوز الجالسون فيه هذا العدد ، وإلا كان فى ذلك مضايقة لهم جميعا .

وهذه المضايقة قد يمكن التسامح فيها ، ولكن روح العبث بالنظام ، وروح الرغبة فى أخذ ما ليس للانسان وما لا حق له فيه ، تشجيع هذه الروح هو الذى ينطوى على ضرر ، أبلغ الضرر .

وهناك أمثلة عديدة أخرى . ولكنا نكتفى الآن بسرد ما سردناه ، على أن نتابع ذكر أمثلة جديدة فى مقال ثان .

محمد زكى عبد القادر